ولا استقباح إلا بعلّة ... وهو في اعتقادنا من أكثر علمائنا توفيقاً في هذا المجال ، ولعله بينهم أحسن من استعان على التذوّق وتحليل أسرار الجمال بالعقل والعلم والمنطق .

ولقد تبوّأ الإمام الجرجاني هذه المنزلة الرفيعة في تاريخ البلاغة العربية بأمرين اثنين :

أولهما : أنه اتجه بالبلاغة نحو التقنين ، وتحديد المعالم ، فكانت له في (دلائل الإعجاز) نظرة كاملة في المعاني ، وكانت له في (أسرار البلاغة) نظرة كاملة تقريباً في علم البيان .

والأمر الثاني : أنه آلف بين العلم والذوق ، واستعان بأحدهما على الآخر ، فهو في تحليله للشواهد والأمثلة إنما يأخذ بأيدينا ليقفنا على الجمال بشعورنا وإحساسنا ، ثم يأخذ بأيدينا ثانية ليقنعنا بصدق شعورنا وإحساسنا بالجمال ، إقناع العقل والمنطق بعد إقناع الشعور والاحساس ، واطمئنانِ النفس والقلب .

يقول الدكتور شوقي ضيف : « ولعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة إذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعاً دقيقاً . أما النظرية الأولى فخصّ بعرضها وتفصيلها كتابه (دلائل